الموضوعات في الأدب المقارن:

يعتبر علم الموضوعات، إجراء تجديديا في الدراسات المقارنة بعد أن سيطرت عليها الدراسات التاريخية ولوقت طويل، حيث كانت الدراسات التاريخية المقارنة تهتم بالمحيط النصي على حساب النص نفسه، وهذا يؤكد قابلية الأدب المقارن للتجديد وللاستفادة من المناهج النقدية الجديدة.

1-ما هو الموضوع؟

يتعرض هذا المصطلح للكثير من الخلط والتداخل مع مصطلحات أخرى، وهذا ما جعل الآراء تختلف في تقديم تحديد واحد له، فيعرف بـ:« **مادة اهتمام الإنسان وشغله الشاغل**»[1]، فاهتمام الكاتب بموضوع ما يملئ مخيلته بكل ما يمت إلى الموضوع بصلة، ويصبح هذا الشاغل متحكما في الأساليب والعبارات بشكل محكم ومتناسق، وهناك من يرى أن الموضوع الحقيقي في نص من النصوص:« **ما ليس المحتوى المطروق، أي المحتوى الشعوري المرغوب فيه، الذي يمتزج مع ما تعنيه الكلمات، وإنما هو الموضوعات الشعورية والأنماط غير الإرادية التي تكتسب فيها الكلمات والألوان والأصوات ومعناها وحياتها**»[2]، فالقول يؤكد أن الموضوع خارج عن قصد الكاتب بل هو من مكونات اللاوعي والذكريات المخزونة في العقل الباطن، التي وجدت في النص الأدبي فرصة لتطفو على السطح، وهو الموضوع الحقيقي الذي يسكن بين أسطر النص الأدبي.

وهكذا فالموضوع هو أهم مادة في الأدب، هو الذي يعطي للمحتوى الأدبي الترابط والتناسق، وهو مفهوم واسع قد يقصد وضعيات ومواقف ظاهرة في النصوص الأدبية، كقولنا موضوع المجرم في رواية"***الجريمة والعقاب***" لدوستوفسكي فهو موضوع واضح وصريح، ويضم الموضوعات اللاشعورية

1-برونيل(بير) وآخرون: ما الأدب المقارن؟ تر:حنون(عبد المجيد) وعيلان(نسيمة) ورجال(عمار)، منشورات مخبر الأدب العام والمقارن عنابة 2005، ص 212.
2- برونيل(بير) وآخرون: ما الأدب المقارن؟ ص 221.

المختزنة في النص كالنماذج العليا الموروثة كموضوع السندباد البحري في الآداب الأوروبية بصفة عامة، أو الناتجة عن تجارب الكاتب الحياتية وعن ذكرياته القديمة والطفولية كـ أوديب موضوعا معبرا عن مكبوتات وعقد نفسية، ويرتبط الموضوع بالزمان والمكان والشخصيات الأدبية والحدث، وحتى بالجنس الأدبي فهناك موضوعات تحضر بقوة في جنس دون بقية الأجناس.

2- دراسة الموضوعات والأدب المقارن:

ظهرت دراسة الموضوعات بداية الأمر عند الألمان بداية القرن العشرين، من خلال مجلة ماكس كوخ ومجلة تاريخ الآداب المقارن، ومجموعة دراسات مقارنة في تاريخ الأدب[1]، قبل أن يتبناها الأدب المقارن، في رحلة تجديده للمناهج المتعلقة به، حيث أن هيمنة المنهج التاريخي أدت إلى صرف الدارسين عن بنية النص ومادته، وكانت دراسة الموضوعات من التطورات التي عرفتها الأدب المقارن، جعلته يستفيد من المناهج الجديدة، وتقربه من الأدب العام؛ الذي عني بالموضوعات المشتركة والمتشابهة بين الآداب.

ورغم أن علم الموضوعات خرج من عباءة الأدب المقارن، وكان في فترة من الفترات ضرورة منهجية خرج بها الأدب المقارن من جمود الدراسات التاريخية، إلا أن المقارنين اختلفوا في جديته من عدم فائدته، فهذا بول هازار:« **صرف المقارنين عن دراسة الموضوعات لأنه يرى فيها مجرد المادة الأدبية التي تكتسب قيمتها بفضل الأجناس والشكل والأسلوب**»[2]، فأصحاب هذا الرأي لا يرون فائدة من الحديث عن علم للموضوعات، لأنه موجود في كل الأحوال في كل نص أدبي.

وقد دافع آخرون أمثال ريمون تروسونR. Trousson عن علم الموضوعات وهاري لوفينHarry Levin، على اعتبار الإضافة المنهجية التي أضافها للبحث:« **إذا كان علم الموضوعات يمثل أحد حقول دراسات الباحث المقارن، فإن الموضوعاتية تمثل المناهج التي يمكنه**

1- المرجع السابق، ص 195.
2- المرجع نفسه، ص 195.

الالتجاء إليها»[1]، عن علم الموضوعات وكانوا:« **المدافعين الأشداء عن عودة علم الموضوعات إلى الحياة من جديد»**[2]، حتى أن تروسون اقترح أن يكون علم الموضوعات مستقلا عن الأدب المقارن رغم أنه ولد من رحمه، نظرا للحيوية التي أبداها في استيعاب الدراسات، والخصوبة في تقبل المناهج، وانفتاحه على المقاربات المجاورة النسقية منها والسياقية.

3- دراسة الموضوعات والانفتاح على مناهج النقد:

وكان مفهوم الإبداع عند الموضوعاتيين يختلف عن غيرهم فهم يرون:« **الإبداع لدى النقاد الموضوعاتيين يمثل وعي المبدع، لذلك لجأوا أحيانا إلى التحليل النفسي، أو أحلام اليقضة البدائية العميقة المترسبة في الذات المبدعة»**[3]، فالبحث في الموضوعات يبحث في الحالة الواعية المؤدية للإبداع، وهي المشكلة لموضوعات التعبير الفني عند الفنان، وهكذا ينحو التحليل الموضوعاتي نحو التحليل النفسي، فلا يمكن أن يفصل العمل الأدبي عن شخصية مبدعه حسب نورثروب فراي[4]Northop Frye.

كما ينسج المنهج الموضوعاتي علاقات مع المنهج التاريخي؛ حيث لا يمكن دراسة موضوعه دون التعرض لرحلته التاريخية، سواء في الأدب الواحد أو في آداب عدة:« **المنهج التاريخي مازال يحتفظ بكل حقوقه في ميدان علم الموضوعات»**[5]، وقد ينشر موضوع ما في أدب دون آخر وهذا مبرر آخر يدفع إلى الدراسة التاريخية للموضوع، وخصوصيات التيارات الفنية في تناولها للموضوعات، وقد تنتشر موضوعات معينة في حقبة تاريخية دون غيرها، ويختفي أو يقل ظهورا في أزمنة أخرى، وهذا مبرر للبحث عن تحولات الموضوع، والدراسة التاريخية تتيح المجال لدراسة الأفكار؛ حيث أقر الباحثون المقارنون بأنه:« **لا يمكن هنا فصل الموضوعاتية عن تاريخ الأفكار. فقد بين بيير ماشري**

1- المرجع السابق، ص 196.
2-علیوي(سامية): تجليات شهرزاد في الشعر العربي المعاصر-دراسة نقدية أسطورية، دار ميم للنشر الجزائر، ط1 2018، ص 16.
3 - علیوي(سامية): تجليات شهرزاد في الشعر العربي المعاصر، ص 17.
4-- برونيل(بيير) وآخرون: ما الأدب المقارن؟ ص 201
5- المرجع نفسه، ص 198.

Machry [....] الموضوع يعد حسب ماشري نفسه، بمثابة الفكرة على مستوى الصفر، ثم تلبس الفكرة الموضوع»[1]، فالفكرة هي النواة الأولية لتشكل الموضوع في نص من النصوص، وتغيرات الموضوع هي تجدد للفكرة.

لم تكتفي دراسة الموضوعات بتعالقها بالمناهج السياقية، فقد استفادت من المناهج البنائية:« **تقيم علاقات ما بين الموضوع المختار وبين الموضوعات التي ينفصم عنها ضمن شبكة النص»**[2]، فقد تناولت هذه المناهج النص كبنية مغلقة، مركزة على خصائصه الداخلية من أسلوب وبناء، وهذا ما أغنى الدراسة الموضوعاتية بكثير من الإجراءات التي زادتها دقة، من حيث ارتباط الموضوع بأسلوب معين، أو قالب فني معين، ولنقل ارتباط الموضوع بجنس أدبي معين، فالدراسة الموضوعاتية لا تلغي جماليات النص وأهمية بنياته، بل تعالجها.

ولا ينبغي إهمال العلاقة التي تربط دراسة الموضوعات بالأدب المقارن، فهو المجال المساهم في انبثاق هذا المجال، وعادت ما تقرن الدراسة الموضوعاتية بالرؤية المقارنة، التي تسمح بمعرفة المتغيرات التي يتعرض لها الموضوع من أدب إلى أدب، والثوابت التي بقي محافظا عليها، ودور الموضوعات في حركية التواصل والتأثير والتأثر بين الآداب المختلفة، أو بين الفنون المتباينة، وما انفصلت الدراسة المقارنة عن دراسة الموضوعات يوما، رغم انفصال هذا المجال بذاته.

4- مصطلحات علم الموضوعات الأساسية:

أ-الموتيف Motif: هو أقرب المصطلحات إلى الموضوع ويعرف بـ:« **إن الموتيف، قبل كل شيء، عنصر ملموس، يتعارض مع التجريد ومع عمومية الموضوع»**[3]، فهو على هذا جزء من الموضوع، ومن الطبيعي أن يتكون الموضوع من عدة موتيفات، وتكرار الموتيف دليل على حضور الموضوع وإن كان خفيا، وقد يتكرر الموتيف عند عدة أدباء وهذا دليل انتقال الموضوع من أدب إلى

1-برونيل(بير) وآخرون: ما الأدب المقارن؟ ص 203
2- المرجع نفسه، ص 199.
3-- المرجع نفسه، ص 217.

آخر، فقد يكون موتيف الترحال دليلا على موضوع السندباد، وموتيفات الخطيئة والتيه مكونة لموضوع أوديب، فالموتيف بهذا وحدة أساسية في كل موضوع، تتكرر كلما ورد الموضوع عند كاتب واحد أو عند كتاب عدة.

ب–النموذج: يقصد به:« **صورة متكاملة الأبعاد لشخصية أدبية، بحيث تتمثل فيها مجموعة من الفضائل أو النقائص كانت متفرقة من قبل في عالم التجريد،أو في مختلف الأشخاص**»[1]، ولا يأخذ النموذج أهمية إلا إذا وظف في عمل فني، فالكاتب يجمع شتات هذه الصفات في شخصية أدبية واحدة، ويمكن للموضوع الواحد أن يضمن نماذج عديدة: ك موضوع الجنون في الأدب الذي قد يضم نماذج: الرجل المجنون والمرأة المجنونة، المجنون/العاقل، المجنون/الفنان.... إلخ، وقد يحصل العكس ينعكس نموذج واحد في عدة موضوعات ك: نموذج البخيل الذي نصادفه في موضوع البخل، وقد يحضر في موضوع آخر كالفقر أو حتى الإجرام والجشع، والنماذج أنواع أنسانية: كالطفل ونموذج الأجنبي والعربي واليهودي...، ونماذج أسطورية ك: ألكترا وأوديب وشهرزاد وجحا.

ج–الأسطورة: على اعتبار أن الموضوع قد يكون خرافيا أو حكائيا، شكلت الأساطير واحدة من أغزر مجالات الدراسة الموضوعاتية، ثم لحيازتها اهتمام الكثير من المقارنين المهتمين بدراسة الفلكلور، وكانت أولى اهتمام علم الموضوعات "الأساطير"؛ وتحولها إلى الصيغة الأدبية المكتوبة والإبداعية، أي دراسة الثوابت في الأسطورة الأولية، التي حملتها معها من النص الشفوي، والمتغيرات والموتيفات المكتسبة بعد دخولها النص الإبداعي، وبعد انتقالها بين أدب وآخر.

5–أنواع الموضوعات:

1- غنيمي هلال(محمد): الموقف الأدبي، دار العودة بيروت لبنان 1977، ص7.

أ-موضوعات شخصية: تتواتر عادة عند الكاتب الواحد، وتعتبر حصيلة حياتية له:« **بغية أظهار ثوابت كالهواجس المتعلقة بسنوات الطفولة**»[1]، وهي موضوعات نفسية كذكريات الطفولة خاصة، أو هواجس متعلقة بسنواتها الأولى، التي تشكل الوعي فيها.

ب- موضوعات نابعة من الواقع السياسي أو الاجتماعي أو الواقع الأدبي والفني: تكون مرتبطة بفترة تاريخية معينة وظروف معينة، كموضوع الأحلام في الحركة السريالية، وموضوع العبث في أدب فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية.

ج-موضوعات خالدة: كوضوعات موروثة حققت حضورها في الأدب الحديث، رغم أنها موضوعات قديمة، ومثال عنها: الأساطير والملاحم والشخصيات التاريخية.

د-النماذج الإنسانية: أشكال بشرية مشتركة بين آداب العالم العديدة، وقد تولد في أدب ما، وتنتقل إلى عدة آداب عبر المبادلات الأدبية الدولية.

(تمت أ.حميدة سليوة)

1- برونيل(بير) وآخرون: ما الأدب المقارن؟ ص 209